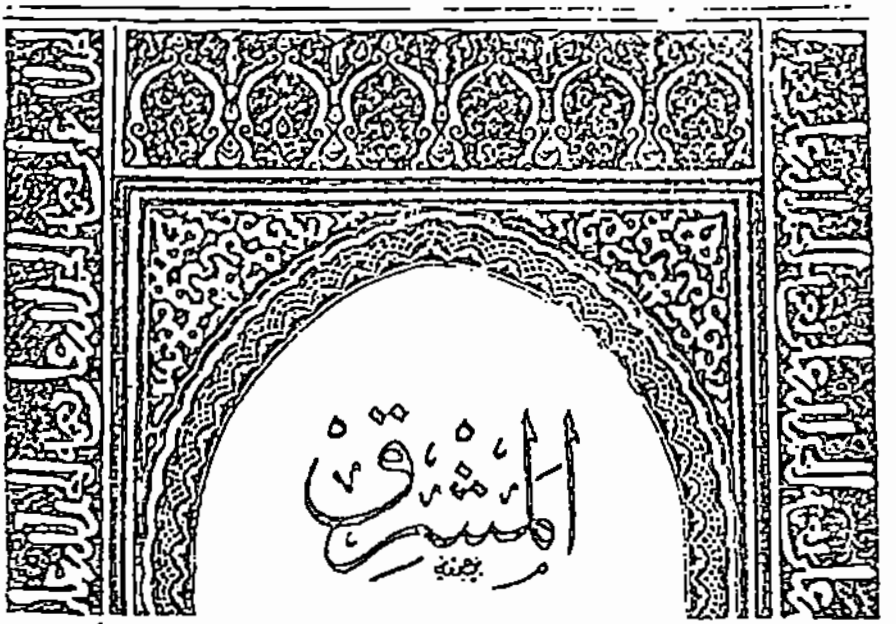

المشرق
بيروت

السنة الثامنة والثلاثون

نيسان – حزيران
تموز – ايلول ١٩٦٠

دُور العلم وبيوت الحكمة

من آثار الاب متري لامنس اليسوعي

ان النصوص العربية القديمة ، الراقية الى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، كثيراً ما يصادف فيها المطالع كلمة « علم ». فما المراد بهذه اللفظة ؟ وماذا تمثل ؟ وهل تعني « العلم » بمدلوله العصري كما نفهمه في ايامنا ؟

ان الاكثرية الساحقة من هذه النصوص ، ان لم نقل كلها على الاطلاق ، تعني « بالعلم » فروع المعرفة الدينية ، وهي علوم القرآن ، والقراءات ، والتفسير ، والحديث ، والفقه ، وسيرة الرسول ... وقد يُضاف اليها احياناً الادب واللغة. وعلى هذا : كان « العالم » الكسائي يلقي دروساً في اللغة بجامع بغداد[1]. ولا يخفى ان الجامع كان يُتخذ لالقاء الدروس في الفنون المختلفة من هذا «العلم»

١) ياقوت : معجم الادباء ٤ : ١٢٥

الديني . ولا شكّ في ان المحدّثين رموا الى هذه المعارف وحدها ، عندما نسبوا الى النبي الحديث المشهور : « اطلبوا العلم ولو في الصين ! »

وليس ما يشير في هذا الحديث الى العلم بالمعنى العصري . اما ما فيه من طلب الرحلة فيلمّح الى تلك الرحلات البعيدة التي كان يقوم بها بعض طلّاب « العلم » في سبيل جمع الاحاديث ، او لقاء شيخ مشهور بالتفسير او بالفقه.

وكان التعليم الملقى في الجامع حرًّا من كل نظام، سهل المأخذ على الجميع. وكان المعلّم يحتل مركزًا وسط الساحة ، او تحت رواق ، او قريباً من احد الاعمدة داخل الجامع . فيجتمع حوله السامعون في حلقة.

وكان يلتحق ببعض الجوامع غرف صغيرة ينزلها فقراء الطلّاب ، او النزلاء من المسافرين . وليس من امتحان ولا من منهاج خاصّ . انما يكتفي الاستاذ بقراءة نصّ من النصوص الدينية فيشرحه باقتضاب . وقد يلقي ، عن ظهر قلبه ، مئات الاحاديث فلا يتلعثم ، ولا يخطىء باسم واحد في تلك السلاسل الاسنادية المستطيلة . وهو من عجائب الحافظة . وقد ذُكر محدّثون حفظوا ٥٠٠٠٠٠ حديث[1] يوردونها باسانيدها. واذا ما انتهى الاستاذ من شرح كتاب او مادّة امكنه ان يعطي من اراد من سامعيه إجازة بالعلم الذي ختمه . ومن فضل هذه الإجازة ان تبيح لصاحبها تعليم غيره مما استفاده من استاذه الاول . وهي تقوم مقام شهادات اليوم، وتولي صاحبها مرتبة « العلماء ».

ولنشر اخيرًا الى ان لفظة « علم » الواردة في القرآن[2] تدلّ على المعرفة الدينية او الموحاة ، ليس غير.

❁

والعلم بالمعنى العصري، او المعارف غير الدينية، كيف كان يعرفها العرب ؟ وكيف كانوا ينعتون الطبّ مثلًا ، والرياضيات ، والفلسفة ، والفلك ؟

كانت هذه العلوم، ولا سيما الطب ، في صدر الاسلام، متروكةً لغير المسلمين يضطلع بها اليهود والنصارى خاصّة. وهذا الجاحظ يقول ان الطبيب الذي يحمل

١) راجع كتابنا L'Islam, p. 81

٢) القرآن ١٢ : ٢٢ ؛ ١٨ : ٦٤ ؛ ١٩ : ٤٤ ؛ ٢٨ : ١٢ ...

اسماً اسلامياً ، يتعرَّض للموت جوعاً . لأن إقبال الناس كان على الاطباء ذوي الاسماء النصرانية . وقد وضع المسلمون هذه المعارف الدنيوية جميعها على هامش « العلم » ، فسمّوها « العلوم القديمة » او « علوم القدماء » ، او « علوم الاوائل » ، او « علوم الحكماء »[1] . ولم يكن التعليم العام الملقى في الجوامع ليهتمّ بها او يشير اليها . وكذلك كانت الحال في « المدارس » — ولا ترقى اقدمها الى ما قبل القرن الرابع الهجري — فكان لا يدرس فيها الّا العلوم الدينية . على ان المقريزي يذكر بعض الدروس الطبية في الجامع الأزهر بالقاهرة . ومهما يكن من امر فـإن تدريس الطبّ كان يُلقى عادةً في بعض البيمارستانات ، او المستشفيات ، حيث كان الطلّاب يزدحمون حول الطبيب الاستاذ ، فيحضرون تشخيصه وعلاجه ، ويسألون بعض الشروح ، ويحفظون طرق تطبيبه حتى ينشروها بدورهم في ما بعد . وهكذا كان الطب عملياً اكثر منه نظرياً .

ولا يخفى ما كان من إعراض « العلماء » والخُلّص من الفقهاء وارباب السنة عن العلوم الدنيوية ، وازدرائهم بها ، وتحذّرهم من اصحابها ، ولا سيما الفلسفة . وكثيراً ما اعتبروها من مدارج الزندقة . وعدّوها مع غيرها من « علوم الاوائل » في طبقة ما قال عنه النبي : « علم لا ينفع » . وهذا ابن تيميّة ، المجادل الشهير ، لا يرضى باستعمال اسم العلم الّا للعلوم القرآنية .

وهو ما يقودنا الى ذكر كلمة عن « دور العلم » و« بيوت الحكمة » .

وقد يعرف القراء ان هذه « الدور والبيوت » ، على الرغم من اسمائها الفخمة والقابها الرفيعة ، كانت بعيدة كل البعد عن « الجامعات » المعهودة ، بل بعيدة عمّا نعرفه من معاهد التدريس .

ولعلّ اشهر هذه البيوت « بيت الحكمة » الذي أسسه المأمون (١٩٨—٢٠٢ هـ = ٨١٣—٨١٧) ، ويخاله الكثيرون مدرسة كبرى تدرس فيها العلوم القديمة . اما حقيقته فمكتبة كان يشتغل فيها بعض النصارى فينقلون المؤلفات

(١) راجع الفهرست ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ . . .

اليونانية القديمة.[1]

ودار العلم التي انشأها في الموصل جعفر بن محمد († ٣٢٨=٩٣٩—٩٤٠) لم تكن سوى مكتبة يُعطى المشتغل فيها الورق مجاناً[2].

وكثير من هذه « الدور » العلمية كانت ترمي الى هدف خاص، اي ان اربابها كانوا يجمعون فيها عدداً من الكتب في موضوع معلوم، رامين الى نشر دعوة دينية او الى تعزيز مذهب فقهي. وهكذا القول عن دار العلم التي انشأها في طرابلس، قبيل الحملات الصليبية، بنو عمار. فان غايتها كانت نشر الدعوة لمذهب منشئيها الشيعيين. وهي غاية مكتبة الفاطميين الكبرى في القاهرة. ومن النوع نفسه كانت الدار الفسيحة، المتعددة غرف المطالعة، التي انشأها الحاكم الفاطمي فدعاها دار العلم والحكمة.

ولهذا كثيراً ما دعا الناس هذه المؤسسات « دور الكتب » و « خزائن الكتب » وهو لقب أليق بها من نعت التعليم. ولا ننكر ان بعض الشيوخ كانوا يلقون احياناً في هذه المؤسسات محاضرات او شروحاً تفسيرية، انما كان هذا الأمر يأتي عرضاً ونادراً.

ومنذ القرن الخامس الهجري لا نكاد نسمع بتأسيس شيء من هذه الدور والبيوت في ديار الاسلام السني.

١) الفهرست ٢٤٨

٢) ياقوت: معجم الادباء ٢: ٤٢٠